

قَتِيبُ الْبَاهِلِيِّ

البطل الفاتح

للمنشر في الإنجليزية هـ.أ. ر. جب
الأستاذ بجامعة إسكسفورد

إن انتصار الجيوش الإسلامية في آسيا الوسطى أيام عهد الوليد الأول إنما يرجع قبل كل شيء إلى التعاون الثام بين عبقرية الحجاج الحكيم ومهارة قتيبة الحربية . ولقد بواغ — من بعض النواحي — في كفاية قتيبة بن مسلم الباهلي في قيادته الجحافل ، وإن كانت المصادر العربية لا تنكر الحقيقة الواضحة في أن قدرته لا ترتكز كل الارتكاز على العبقرية . ويتجلى لنا مراراً كثيرة إلى أي مدى كان ذووب الوالي على الاهتمام بتقدم جيوشه ، وما كان يأخذ به نفسه من وضع خطة القتال ، ولو أن فضل إظهارها وانتهائها بالنصر المؤزر يرجع في الحقيقة إلى قتيبة . ويظهر أن الحجاج كان كبير الثقة في قائده إلى غير حد ، وكما أنه لم يكن ليتوانى عن تصنيفه ولومه وتحذيره إذا جدد ما استدعى ذلك ، كذلك كان لا يحجم عن إظهار تقديره لنجاح قتيبة . وسرعان ما أدرك العرب في جميع البقاع أن مقدرة الحجاج تشد من أزر قائدهم وإن استمرت ، فكان ذلك الإدراك مبثوث كثير من هذه الهبة التي حالت دون حدوث أي خلف في حياته

أما العامل الثاني الذي ساعد في الواقع على تلك الفتوح فقد كان ما قام به قتيبة خلال متابعتها الفتح من توحيد جهات خراسان ، وتأليفه الفرس والعرب ، وقيس واليمن . ولم يكن من الهين عليه أن يستبقي حماسة جنده — التي لا يعرف التخاذل إليها سبيلاً — إزاء معارك طويلة الأجل حامية الوطيس ، وهبات أن يقصر تفسير هذا الحماس على أنه الرغبة في النسيمة الوفيرة حسب . وليس من البعيد أن يكون مرجع نجاح قتيبة في الغالب إلى مقدرته الإدارية أكثر من رجوعه إلى حكمة قيادته . ويظهر أنه أدرك أن استتباب سلامة ودعائم الحكومة العربية في ولاية تخراسان ينبغي أن يقوم — طوال حكمها — على تعاون الشعب الفارسي الذي يؤلف الغالبية العظمى في الإقليم : الأمر الذي لم يبق به حتى الآن أمير عربي في الشرق

ولقد أظهرت حدة الفضال الحزبي عظيم الخطورة في الاعتماد على عون العرب لحسب ، وعلى الأخص في وجه حركة كتلك التي أنشزم ليهيها يزيد . ومن ثم فقد اكتسب قتيبة — بعمله الإيجابي هذا — ثقة الفرس وكافأها من جانبها بالثقة أيضاً . حتى ليكاد يخيل إلينا أنه باستمهاله — طول حكمه — لموظفين من الفرس وتقديمه الولاء الإيرانيين إنما كان يمدح « المشيرة » التي كان يحتاج إليها بين العرب . وعلى الرغم من أن ذلك قد جلب عليه مسخط العرب وكان عاملاً قوياً في إسقاطه ، إلا أنه في ذلك كان أول دافع لإثارة الشعور باسترجاع الماطفة القومية في نفوس فرس خراسان .

كذلك كان مركز آسيا الوسطى مشجعاً للمودة إلى محاولة ضم بلاد ما وراء النهر الفنية إلى المستعمرات العربية ، وإن كنا في شك غير قليل إزاء الأخبار المتعلقة بمدى اهتمام العرب بهذه الناحية . ففي سنة ٦٨٢ م ، بينما دب الضعف الداخلي في الصين من جراء مكائد الامبراطورة Wu ، وبينما كانت يداها مصفدتين بحروبها مع التبت قام الأتراك الشماليون أو الشرقيون باسترداد استقلالهم ، ولم تفلح الامبراطورية الجديدة مطلقاً في بسط نفوذها ثانية على الأقاليم القريبة في الغارات السابقة ، غير أنها مدت حكمها — بواسطة الحملات المتواصلة — على القبائل المشرقية التي تنزل إلى Ili وتشو Chu التي يقال إنها « قد تلاشت في أغلبها » وفي سنة ٧٠١ م غزا الأتراك الشرقيون سجديانا Sogdiana ، بيد أنه ليس ثمة داع للاهتمام جدياً بالقول بأن قوات المهلب قد تأثرت بهذه النزوة ، ولو أنه كثيراً ما رُدد هذا القول ، ولا بد أن التدمير والحساسة اللذين كانت تسم بهما هذه الغزوات بلا استثناء قد ساعدا على إضعاف موارد أمراء الرغبة الذين كان لهم نصيب وافر في اختيار ابن الخان ليقود القبائل المشرقية . وعلى أية حال فإن الحرب الدائمة التي كان يثير ضرامها الأتراك الشرقيون ضد التركش Türgesh من ٦٩٩ إلى ٧١١ م قد حالت في الواقع بينهم وبين إرسال منجذات إجابة لاستنثاءات كانت تصلهم من سجديانا بطلب المون^(١) منهم . كذلك لم يكن

Chavannes : Documents sur les Tou-Kue occidentaux (١)

(طبعة سنت بطرسبرج سنة ١٩٠٣) P. 42, 282.

Marquart : Die Chronologie der Altürkischen Inschriften

(ليزج ١٨٩٨) P. 15. راجع كذلك الطبري ج ٢ ص ١٠٧٨ و ١٠٨٠

من المستحيل على التركش التدخل في سجديانا خلال هذا العهد نفسه (١)

ويقصد مؤرخو العرب — بلا استثناء — بكلمة « الترك » جميع السكان المحليين الذين لا يستبعد أنه كانت فيهم إبان ذلك الوقت عناصر تركية . والواضح أن الاشارات العرضية إلى الخاقان إنما هي نعوت نفير (اللهم إلا إذا أمكن إرجاعها إلى الرؤساء المحليين وذلك أمر بعيد الاحتمال) ؛ وإن قصة ٩٨ هـ التي اتخذتها فكرة التدخل دعامة لها إنما هي من نسج خيال باهلي بحت ، وخلاصة القول أن تجربة العرب في السنوات الأخيرة ترينا أنه كان من المحال على قتيبة أن ينعم بهذا المجد الباذخ من النصر لو أن كتائب كبيرة من الترك وقفت وراء سجديانا تشد من أزرها في مقاومتها . وقع فتوح قتيبة بطبيعة الحال في أربعة أوقات هي :

١ — سنة ٨٦ هـ (٧٠٥ م) حيث استرد إقليم طخارستان الأدنى

٢ — فتح بخارى من ٨٧ — ٩٠ هـ (٧٠٦ — ٧٠٩ م)
٣ — تركيز نفوذ العرب في وادي جيمون وامتداده إلى سفند بين سنتي ٩١ و ٩٣ هـ (٧١٠ — ٧١٢ م)

٤ — الحملات على ولايات تركستان ، من ٩٤ — ٩٦ هـ (٧١٣ — ٧١٥ م)

أما عن إقليم طخارستان الأدنى فقد كان الجهد قبل قتيبة منصباً على كبت كل ثورة تنشب في هذا الإقليم . وفي ربيع السنة السابعة والثمانين للهجرة (٧٠٥ م) التأم الجيش وسار من « مرورود » وطالقان إلى بلخ ، ولقد خضعت المدينة — كما ورد في إحدى روايات الطبري — دون نضال ما . وتشير رواية أخرى إلى شوب ثورة بين بعض السكان ، وقد يمكن عد هذه الرواية وإن لم تكن في وضوح الباهلية — كسابقتها لورودها على لسان أخى قتيبة ولأنه يرى من ورائها لاقامة دعوى باهلية على البرامكة . ولقد يكون هذا الرأي هو الأدنى إلى الصحة ما دمنا نسمع

من أن بلخ قد أصبحت خربة بعد أربع سنوات من ذلك (١) وتلا إخضاع بلخ إخضاع تيش Tieh ملك شافانيان الذي يحتمل أنه تعاون مع المفضل في الهجوم على ترمذ قبل ذلك بعام واحد . ويظهر أن الدافع له على عمله هذا إنما هو الصراع مع ملك شوهان في الأودية العليا لنهرى سرخان وألبنجاليا ، وكان يأمل أن يستخدم ضده الجيوش العربية جزاء مساعدته إياها . وحقيقة الواقع أن المفضل قد دبر حملة ضد شومان قبل استغاثته ، وكانت قد خرجت تحت إمرة قتيبة الذي كان أكثر الجميع استعداداً للهوض بها ما دامت تؤكد سلامة الوصول إلى الطريق الجنوبي للبوابة الذهبية . وبعد أن فرغ قتيبة من إخضاع ملك غسلسشتان Ghislashtan الذي كان من نعمة تركية كما يذكر يوان شوانج Yuan Chwang . وآب قتيبة بمفرده إلى مرو تاركاً جيشه يسير تحت إمرة أخيه صالح الذي قام بمسدة غزوات صغيرة أثناء الطريق .

وإنه لمن الواضح الجلي — على الرغم من زعم البلاذري — أن هذه الغزوات لا بد أنها قد وقعت في الأقاليم المجاورة لنهر جيحون ، ومع ذلك فإن في رواية الطبري نقصاً (٢)

وهكذا فإن قتيبة لما غرل (ريزك) في بادغيس قلب الثورة أمضى شهور الشتاء في مقاومته عن طريق « سليم الشير » وهو فارسي نافذ الكلمة قد برهنت حنكته — أكثر من مرة — في تصريف أصعب المفاوضات على حاجة قتيبة القصوى إليه . وقد أغرى « نيزك » على التسليم ، وسبق إلى مرو وقرت الأغمار على ألا يدخل قتيبة بادغيس بشخصه . ومع ذلك فإن الحاكم — من باب الاحتياط — قد أمر أن يصحبه (نيزك) في جميع حملاته ، ومن ثم فإنه — على الأقل في هذه اللحظة — كان قد أمن من خطر اندلاع ثورة في خراسان بطريقة شريفة لكلا الجانبين ؛ وقام ابن يروز قافلاً إلى الصين ينتظر سنوح فرصة تكون أكثر مواتاة له (٣) .

١ . هـ . م .

(١) راجع الطبري ج ١ ص ١٢٠٦

(٢) من قراءات برتولد في Turkyestan v' Epokhu Mongolskavo

(٣) سنت بطرسبرج ١٨٩٨ (Nashystviy P. 91. N. 5 and P. 76.)

(٣) الطبري ص ١١٨٤ و ١١٩٥ والحمداني في كتاب البلدان

(١) كما يرى ذلك الأستاذ هوتسا ، راجع Gotting. Gelehr. Anz. 1899. PP. 386-387.